اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الثامنة)

عنوان المحاضرة : ابو نواس.

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

المحاضرة ٨

أبو نواس :

وأبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه، وهو فارسى الأم والأب أيضا، وقد انبهم أمر أبيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هى أبو نواس، وكذلك حين رأوا فى أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربى، وتمادوا فصنعوا له نسبا فى بنى سعد لعشيرة . والصحيح أنه كان مولى فارسيّا من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى والى خراسان لعهد عمر بن عبد العزيز، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة ،

وقد نزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧ – ١٣١ هـ) وهناك تعرّف على جارية فارسية تسمى جلبّان كانت تغزل الصوف وتنسجه، فاقترن بها ورزق منها عدة أولاد ، منهم أبو نواس، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه، فنقلته أمه إلى البصرة، وقامت على تربيته، وسرعان ما دفعته إلى الكتّاب، فحفظ القرآن وأطرافا من الشعر، وتفتّحت موهبته، فأخذ يلهج ببعض الأشعار، وكان مليحا صبيحا ، ويقال إن صبية وضيئة الوجه مرت به فمازحته ساعة، ثم رمت إليه بتفاحة معضّضة، فقال على البديهة من أبيات :

ليس ذاك العضّ من عيب لها ...إنما ذاك سؤال للقبل

وشبّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين، فكان يذهب فى العشىّ إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر وساقه القدر ليتعرّف على والبة بن الحباب أحد مجان الكوفة المشهورين، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار، فوافقه، وكان عنده والبة، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه، فحثّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة، ولم يتردد الغلام، فمضى معه ، ويقال إن الذى أرغبه

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله :

ولها ولا ذنب لها ...حبّ كأطراف الرماح

فى القلب يجرح دائما ...فالقلب مجروح النواحى

رثاء :

أودى جماع العلم إذ أودى خلف ...من لا يعدّ العلم إلا ما عرف

كنا متى ما ندن منه نغترف ...رواية لا تجتنى من الصّحف

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه:

«كان عالما فقيها عارفا بالأحكام والفتيا بصيرا بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه» .

وطلب أيضا علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم فى أشعاره، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلما ثم انتقل إلى نظم الشعر . وقد وصله هذا العلم

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفى وخلفه الأمين (١٩٣ – ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص، واتخذ أبا نواس نديما له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر، واستغلّ ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين، فكان يعمل كتبا بعيوبه تقرأ على المنابر بخراسان، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلا شاعرا ماجنا كافرا يقال له الحسن بن هانى ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم، وهو القائل:

مجون:

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ...ولا تسقنى سرّا إذا أمكن الجهر

وبح باسم من تهوى ودعنى من الكنى ...فلا خير فى اللذات من دونها ستر

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبى نواس فى المجون، فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم ينته، حينئذ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه، فحبسه، وقد مضى فى حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشيعا فيها روحه الفكهة بما يصوّر من نسكه وعلامات السجود فى جبهته وحمله للمسابيح أو السّبح فى ذراعه وللمصحف فى لبّته. وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين وردّ إليه وكانت قد تقدمت به السنّ وعلته كبرة وشيخوخة، فأخذ ينيب إلى ربه، وينظم أبياتا مختلفة فى الزهد، وفى أخباره ما يدل على أنه تنسك مرارا، ثم عاد إلى غيّه، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد، وحين كان يلقى به فى السجن، إذ يقال إنه حجّ سنة ١٩٠ للهجرة (٢)، وكأنما هى صحوات كان يفيق فيها ثم يرجع إلى خطاياه. وتوفى الأمين، ولم يلبث أن توفى من بعده، وقد اختلف الرواة فى تاريخ وفاته ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفى بعد المائتين بقليل وفى ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨. واختلف الرواة أيضا فى سبب وفاته ، فقيل إنه توفى وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض، فدسّ له شربة من سمّ قتلته بعد أربعة أشهر، وقيل بل دسّ له من ضربه حتى مات.

مدح:

يا دار ما فعلت بك الأيّام ...لم تبق فيك بشاشة تستام

ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار فى وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه فى المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله فى الرشيد :

وأخفت أهل الشّرك حتى إنه ...لتخافك النّطف التى لم تخلق

وقوله أيضا فيه :

ملك تصوّر فى القلوب مثاله ...فكأّنه لم يخل منه مكان

وقوله فى الأمين مخاطبا ناقته :

يا ناق لا تسأمى أو تبلغى ملكا ...تقبيل راحته والرّكن سيّان

محمد خير من يمشى على قدم ...ممّن برا الله من إنس ومن جان

ونراه فى هذه القصيدة يضفى على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى ليشبهه بالرسول ﷺ على الرغم مما كان يتردّى فيه من لهو ومجون، واستطرد فى تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين فى الخلافة رادّا ردّا عنيفا على بنى عمهم العلويين.

الطرديات:

وأبو نواس فى أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكا بالقوالب القديمة، وقد سبقه، كما مر بنا فى غير هذا الموضع، أبو نخيلة وأضرابه من شعراء العصر الأموى مثل الشّمردل إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف، ومضى فى إثرهم يحاكيهم فى التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب. وقرن بهذه المحاكاة الشديدة ضروبا من التجديد فى المعانى والصور على شاكلة قوله فى إحدى طردياته :

لما تبدّى الصّبح من حجابه ...كطلعة الأشمط من جلبابه

وانعدل الليل إلى مآبه ...كالحبشىّ افترّ عن أنيابه

هجنا بكلب طالما هجنا به ...ينتسف المقود من كلاّبه

كأن متنيه لدى انسرابه ...متنا شجاع لجّ فى انسيابه

وتمتلئ طردياته بمثل هذه الصور، وهى تعدّ ركنا هامّا فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات، وكان يعرف كيف يجدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر.

الرثاء:

وكان يتخير لمراثيه أسلوبا جزلا مصقولا، وقد يكثر فيه من الغريب، وخاصة إذا كان من يبكيه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه، وقد يتخفف من ذلك، ولكنه على كل حال يظل محتفظا بالأسلوب الرصين. وهو فى مراثيه يمتاز بجرارة اللهجة وصدق العاطفة، وربما كان أجودها جميعا مراثيه فى الأمين، وهى تفيض باللوعة والحزن العميق من مثل قوله:

طوى الموت ما بينى وبين محمّد ...وليس لما تطوى المنيّة ناشر

فلا وصل إلا عبرة تستديمها ...أحاديث نفس مالها الدهر ذاكر

وكنت عليه أحذر الموت وحده ...فلم يبق لى شئ عليه أحاذر

لئن عمرت دور بمن لا أودّه ...لقد عمرت ممن أحبّ المقابر

ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع .

وإذا كان أبو نواس اعتدّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة، فإنه حاول أن يجدد فى **الهجاء والغزل والمجون، وأهاجيه نوعان:** نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائض جرير والفرزدق، فهى تعجّ بالمثالب وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار، فشعوبيته–إن صح هذا التعبير–من لون آخر، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفا، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار، ودعوة جارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله :

عاج الشقىّ على رسم يسائله ...وعجت أسأل عن خمّارة البلد

يبكى على طلل الماضين من أسد ...لا درّ درّك قل لى من بنو أسد؟

كم بين ناعت خمر فى دساكرها ...وبين باك على نؤى ومنتضد

دع ذا، عدمتك، واشربها معتّقة ...صفراء تفرق بين الروح والجسد

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ،

١٩٨٦.

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .